بسم الله الرحمن الرحيم

قال المؤلف فضيلة الشيخ العلّامة عبد الرحمٰن بن ناصر السعدي ـ رحمه الله تعالى ـ في مقدمة كتابه:

«القواعد الحسان المتعلقة بتفسير القرآن»[1].

الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، مَنْ يهده الله فلا مضلّ له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إلٰه إلا الله وحده لا شريك له، وأشهده أن محمداً عبده ورسوله، صلّى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلَّم تسليماً.

أما بعد...

فهذه أُصول وقواعد في تفسير القرآن الكريم، جليلة المقدار، عظيمة النفع، تُعين قارئها ومتأملها على فهم كلام الله، والاهتداء به، ومَخْبَرُها أجل من وصفها؛ فإنها تفتح للعبد من طرق التفسير ومنهاج الفهم عن الله ما يعين على كثير من التفاسير الحالية في هذه البحوث النافعة.

أرجو الله وأسأله أن يتمّ ما قصدنا إيراده، ويفتح لنا من خزائن جوده وكرمه ما يكون سبباً للوصول إلى العلم النافع، والهُدى الكامل.

واعلم أن علم التفسير أجلّ العلوم على الإطلاق، وأفضلها،

---

(١) طبقاً للطبعة المعتمدة من أبناء المؤلف الصادرة بعناية الشيخ خالد بن عثمان السبت، دار ابن الجوزي ١٤٢١هـ.

وأوجبها، وأحبّها إلى الله؛ لأن الله أمر بتدبّر كتابه، والتفكر في معانيه، والاهتداء بآياته، وأثنى على القائمين بذلك، وجعلهم في أعلى المراتب، ووعدهم أُسنى المواهب، فلو أنفق العبد جواهر عمره في هذا الفن لم يكن ذلك كثيراً في جنب ما هو أفضل المطالب، وأعظم المقاصد، وأصل الأُصول كلها، وقاعدة أساسات الدين، وصلاح أُمور الدين والدنيا والآخرة، وكانت حياة العبد زاهرة بالهدى والخير والرحمة، وطيب الحياة، والباقيات الصالحات.

فلنشرع الآن بذكر القواعد والضوابط على وجه الإيجاز الذي يحصل به المقصود؛ لأنه إذا انفتح للعبد الباب، وتمهَّدت عنده القاعدة، وتدرَّب منها بعدّة أمثلة توضحها، وتبيّن طريقها ومنهجها، لم يحتج إلى زيادة البسط، وكثرة التفاصيل.

ونسأله أن يُمدّنا بعونه ولطفه وتوفيقه، وأن يجعلنا هادين مهتدين بمنِّه وكرمه.

التعليق

قال فضيلة الشيخ العلامة محمد بن صالح العثيمين رحمه الله تعالى:

الحمد لله ربّ العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبيّنا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين، ومَن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أخذ المؤلف شيخنا عبد الرحمٰن بن ناصر السعدي ـ رحمه الله تعالى رحمة واسعة وأسكنه فسيح جناته ـ هذه القواعد في رمضان،

وهو يقرأ القرآن ـ كما يظهر ـ، ابتداء من أول رمضان إلى سادس شوال، في أيام قراءة القرآن وأيام الصوم. ثم إن ثناءه عليها ليس بغريب؛ لأن ثناء أهل العلم على مؤلفاتهم لا يقصدون به الفخر أو التفاخر على الخلق، وإنما يقصدون شدّ الناس إلى قراءتها والالتفاف حولها.

وكان ابن مسعود رضي الله عنه يقول: لو أعلم أن أحداً تناله الإبل أعلم بكتاب الله مني لرحلت إليه؛ فهو لم يقصد مدح نفسه، لكنه قصد حثّ الناس على أخذ العلم منه وعلى تمسكهم بطلب العلم. وابن مالك ـ رحمه الله ـ أثنى على ألفيته، فقال:

تقرب الأقصى بلفظٍ موجز وتبسط البذل بوعدٍ منجز
وتقتضي رضاً بغير سخط فائقة ألفية ابن معطي

المهم، أن شيخنا ـ رحمه الله تعالى ـ حينما أثنى على هذا الكتاب لا يريد بذلك أن يفتخر به على الناس، وأنا أعرفه تمام المعرفة، فهو من أشدّ الناس تواضعاً، ولكنه ـ رحمه الله تعالى ـ أراد أن يشدّ الناس إلى هذا الكتاب لينتفعوا به. ونسأل الله تعالى أن يحقق له ما يرجوه وأن يجزل له المثوبة والأجر.

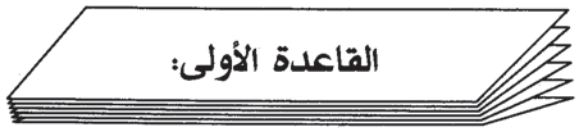

في كيفية تلقي التفسير

كل مَن سلك طريقاً، وعمل عملاً، وأتاه من أبوابه وطرقه الموصلة إليه، فلا بد أن يفلح وينجح؛ كما قال تعالى: ﴿وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا﴾ [البقرة: ١٨٩].

وكلَّما عظم المطلوب تأكد هذا الأمر، وتعيَّن البحث التام عن أمثل وأحسن الطرق الموصلة إليه، ولا ريب أن ما نحن فيه هو أهم الأمور وأجلّها وأصلها.

فاعلم أن هذا القرآن العظيم أنزله الله لهداية الخلق وإرشادهم، وأنه في كل وقت وزمان يرشد إلى أهدى الأمور وأقْومها ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩]؛ فعلى الناس أن يتلقّوا معنى كلام الله كما تلقَّاه الصحابة رضي الله عنهم، فإنهم كانوا إذا قرؤوا عشر آيات، أو أقل، أو أكثر، لم يتجاوزوها حتى يعرفوا ما دلّت عليه من الإيمان والعلم والعمل، فينزلونها على الأحوال الواقعة، فيعتقدون ما احتوت عليه من الأخبار، وينقادون لأوامرها ونواهيها، ويُدخلون فيها جميع ما يشهدون من الحوادث والوقائع الموجودة بهم وبغيرهم، ويحاسبون أنفسهم: هل هم قائمون بها، أو مُخلُّون؟ وكيف الطريق إلى الثبات على الأمور النافعة، وإيجاد ما نقص منها؟ وكيف التخلّص من الأمور الضارة؟ فيهتدون بعلومه، ويتخلَّقون بأخلاقه وآدابه، ويعلمون أنه خطاب من عالم الغيب

والشهادة، موجَّه إليهم، ومطالبون بمعرفة معانيه، والعمل بما يقتضيه.

فمن سلك هذا الطريق الذي سلكوه، وجدَّ واجتهد في تدبُّر كلام الله، انفتح له الباب الأعظم في علم التفسير، وقويت معرفته، وازدادت بصيرته، واستغنى بهذه الطريقة عن كثرة التكلُّفات، وعن البحوث الخارجية، وخصوصاً إذا كان قد أخذ من علوم العربية جانباً قوياً، وكان له إلمام واهتمام بسيرة النبيّ ﷺ وأحواله مع أوليائه وأعدائه، فإن ذلك أكبر عون على هذا المطلب.

ومتى علم العبد أن القرآن فيه تبيان كل شيء، وأنه كفيل بجميع المصالح، مبيِّن لها، حاثٌّ عليها، زاجر عن المضارِّ كلها، وجعل هذه القاعدة نصب عينيه، ونزَّلها على كل واقع وحادث سابق أو لاحق، ظهر له عظم موقعها وكثرة فوائدها وثمرتها.

التعليق

خلاصة هذه القاعدة: أن الله أنزل القرآن هدى للناس وبيّنات من الهدى والفرقان، وأنه يهدي للتي هي أقوم، ومتى آمنا بذلك فإنه يجب علينا أن نسلك الطريق التي تُوصلنا لمعرفة هذا القرآن، والاهتداء به؛ ولنعلم أننا إذا سلكنا هذه الطريق، فإن الله تعالى يبارك لنا فيما قصدنا، وفيما أردنا، قال الله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص: ٢٩]. وكلما تدبّر الإنسان هذا القرآن العظيم، وتذكر بما فيه، فإنه تحصل له بركته عليه في عمره وفي عمله، وفي يقينه وفي جميع أحواله. وإذا أردت أن تأخذ شاهداً على هذا، فانظر إلى أعمار مَن سبقنا من سلف في هذه

الأُمة، كيف يحصلون على الخير الكثير العظيم؟! ونتعجب كيف يكتبون هذا الشيء وكيف يعملون هذا الشيء، فضلاً عن الإعداد له وما يسبقه من تهيئة أبدانهم وقلوبهم وأفكارهم، كل هذا ببركة هذا القرآن العظيم، فعليك أن تشدّ يديك به، وأن تعضّ عليه بالنواجذ، وأن تعلم أنك متى عملت به في ما وجّهه الله عز وجل من تدبّر آياته وتذكره، فإنك ستنال السعادة في الدنيا والآخرة، وهؤلاء سلفنا الكرام رضوان الله عليهم ـ الصحابة ـ لا يتجاوزون عشر آيات حتى يتعلّموها وما فيها من العلم والعمل؛ فتعلّموا القرآن لفظاً والعلم والعمل جميعاً، ولهذا كان الواحد منهم إذا قرأ البقرة وآل عمران جدّ فيهم، أي: صار عظيماً محترماً؛ لأنهم لا يقرأون كما نقرأ نحن؛ مجرد ألفاظ نمرّرها على اللسان ولا تصل إلى القلب أحياناً، ولكنهم يقرأون بتدبر وتذكر واتّعاظ. والذي نزع البركة من علمنا أننا لا نعمل به ولا نتذكر.

فهذا هو خلاصة هذه القاعدة: أن القرآن يهدي للتي هي أقوم، وأنه هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان. وإذا كان كذلك، فعلينا أن نصل إلى هذا الجوهر الثمين، وهو الهدى والبيان والتذكر حتى تحصل لنا البركة في أعمالنا وأعمارنا.

❑ ❑ ❑

ويلتحق بهذه القاعدة:

العبرة بعموم الألفاظ لا بخصوص الأسباب.

وهذه قاعدة نافعة جدّاً، بمراعاتها يحصل للعبد خير كثير، وعلم غزير، وبإهمالها وعدم ملاحظتها يفوته علم كثير، ويقع الغلط والارتباك. وهذا الأصل اتفق عليه المحققون من أهل الأصول وغيرهم، فمتى راعيتَ القاعدة السابقة، وعرفت أن ما قاله المفسِّرون من أسباب النزول إنما هي أمثلة توضح الألفاظ، ليست الألفاظ مقصورة عليها، فقولهم: «نزلت في كذا، وفي كذا»، معناه: أن هذا مما يدخل فيها، ومن جملة ما يُراد بها؛ فإنها ـ كما تقدم ـ إنما أُنزل القرآن لهداية أول الأُمة وآخرها، والله تعالى قد أمرنا بالتفكر والتدبُّر لكتابه، فإذا تدبّرنا الألفاظ العامة، وفهمنا أن معناها يتناول أشياء كثيرة؛ فلأي شيء نخرج بعض هذه المعاني، مع إدخالنا ما هو مثلها ونظيرها؟

التعليق

وعلى هذا، فإذا ادّعى شخص خروج فرد من أفراد العموم من لفظه، قلنا له: أين الدليل؟ لأن الأصل: أن العام شامل لجميع أفراده. قال العلماء: وصورة السبب قطعية الدخول وما عداها فدخولها ظنّي، العام يشمل صوراً متعددة، فمثلاً قضية المرأة[1] التي

---

(١) أخرجه أحمد (٦/٤٦)؛ وابن ماجه (١٨٨)؛ والنسائي (١١٥٧٠)، ورواه البخاري تعليقاً (٧٣٨٦).

اشتكت إلى الرسول عليه الصلاة والسلام زوجها، هذه قطعية الدخول في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ﴾ [المجادلة: ٣]، وظِهَارُ زيد وعمرو بعد ذلك ظنّية الدخول؛ لاحتمال أن لا يراد بالعموم جميع أفراده، لكن الحكم يشملها، إما بالعموم اللفظي، وهو الصحيح، وإما بالعموم المعنوي، وهو القياس لعدم الفارق.

❑ ❑ ❑

ولهذا قال ابن مسعود رضي الله عنه: «إذا سمعت الله يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ فأرعها سمعك، فإنه إما خير تُؤمر به، وإما شرّ تُنهى عنه»(١).

فمتى مرَّ بك خبر عن الله، وعمّا يستحقه من الكمال، وما يتنزَّه عنه من النقص، فأثْبِتْ جميع ذلك المعنى الكامل الذي أثبته لنفسه، ونزِّهه عن كل ما نزَّه نفسه عنه. وكذلك إذا أخبر عن رسله، وكتبه، واليوم الآخر، وعن جميع الأمور السابقة واللاحقة، جزمت جزماً لا شكّ فيه أنه حق على حقيقته؛ بل هو أعلى أنواع الحق والصدق ﴿... وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا﴾ [النساء: ١٢٢] و﴿حَدِيثًا﴾ [النساء: ٨٧].

وإذا أمر بشيء نظرت إلى معناه، وما يدخل فيه وما لا يدخل، وأن ذلك موجَّه إلى جميع الأُمة. وكذلك في النهي؛ ولهذا كانت معرفة حدود ما أنزل الله على رسوله أصل الخير والفلاح، والجهل بذلك أصل الشرّ والجفاء، فمراعاة هذه القاعدة أكبر عون على معرفة حدود ما أنزل الله على رسوله، والقرآن قد جمع أجلّ المعاني وأنفعها وأصدقها بأوضح الألفاظ وأحسنها؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ [الفرقان: ٣٣]، يوضح ذلك ويبيِّنه وينهج طريقه:

---

(١) أخرجه ابن المبارك في الزهد (٣٦)؛ وسعيد بن منصور (٥٠)؛ وابن أبي حاتم كما نقله عنه ابن كثير في التفسير (٢/ ٢)؛ والبيهقي في الشعب (١٨٨٦)؛ وأبو نعيم في الحلية (١/ ١٣٠)، وفي سنده انقطاع.

الألف واللام الداخلة على الأوصاف، وأسماء الأجناس، تفيد الاستغراق بحسب ما دخلت عليه.

وقد نصّ على ذلك أهل الأصول، وأهل العربية، واتفق على اعتبار ذلك أهل العلم والإيمان.

فمثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ إلى قوله: ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٣٥] أدخل في هذه الأوصاف كل ما تناوله من معاني الإسلام، والإيمان، والقنوت، والصدق إلى آخرها. وأن بكمال هذه الأوصاف يكمل لصاحبها ما رُتِّب عليها من المغفرة والأجر العظيم، وبنقصانها ينقص، وبعدمها يفقد. وهكذا كل وصف رُتِّب عليه خير وأجر وثواب، وكذلك ما يقابل ذلك: كل وصف نهى الله عنه، ورتّب عليه وعلى المتَّصِف به عقوبة، وشراً، ونقصاً، يكون له من ذلك بحسب ما قام به من الوصف المذكور.

التعليق

الحكم إذا علق على وصف ازداد بزيادة ذلك الوصف ونقص بنقصه؛ لأن الحكم المعلق على وصف يدل على علِّيَّة ذلك الوصف، والحكم يدور مع علّته وجوداً وعدماً، وقوةً وضعفاً. الحكم إذا علق على وصف، فإنه يقوى بقوة ذلك الوصف ويضعف

بضعفه، فإذا قلت: إن المؤمن له أجر عظيم؛ فكلما قوي الإيمان قوي الأجر، وكلما ضعف ضعف الأجر.

❑ ❑ ❑

وكذلك مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا﴾ عام بجنس الإنسان، فكلّ إنسان هذا وصفه، إلا من استثنى الله بقوله: ﴿إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ﴾ [المعارج: ١٩ ـ ٢٢] **إلى آخرها.**

كما أن قوله: ﴿وَٱلْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ﴾ [العصر: ١ ـ ٢]، **أي: كل إنسان متصف بالخسار ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾** [العصر: ٣]، **وأمثال ذلك كثير.**

التعليق

هذا الجنس لأن الشيخ ـ رحمه الله ـ ذكر الوصف والجنس، وهذا مثال اسم الجنس.

❑ ❑ ❑

وأعظم ما تعتبر به هذه القاعدة: في الأسماء الحسنى، فإن في القرآن منها شيئاً كثيراً، وهي أجلّ علوم القرآن، فمثلاً يخبر الله عن نفسه أنه الله، وأنه الملك، والعليم، والحكيم، والعزيز، والرحيم، والقدوس السلام، والحميد المجيد، فـ «الله» هو الذي له جميع معاني الأُلوهية التي يستحق أن يؤلّه لأجلها، وهي صفات الكمال كلها، والمحامد كلها، والفضل كله، والإحسان كله، وأنه لا يشارك الله أحد في معنى من معاني الألوهية، لا بشر، ولا ملك؛ بل هم جميعاً متألِّهون متعبِّدون لربّهم خاضعون لجلاله وعظمته.

وأنه الملك الذي له جميع معاني الملك، وهو الْمُلْك الكامل، والتصرف النافذ، وأن الخلق كلهم مماليك لله، عبيد تحت أحكام ملكه القدرية، والشرعية، والجزائية.

وأنه العليم بكل شيء، الذي لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء...

التعليق

قول المؤلف ـ رحمه الله ـ: إن الأحكام قدرية وشرعية وجزائية، ونحن نقول دائماً إن الأحكام شرعية وكونية، أو قدرية؛ لأن الجزائية داخلة في القدرية؛ لأنها مما قدره الله على هذا العمل، لكن هذا من باب البسط.

❑ ❑ ❑

...، الذي أحاط علمه بالبواطن، والظواهر، والخفيَّات، والجليَّات، والواجبات، والمستحيلات، والجائزات، والأمور السابقة، واللاحقة، والعالَم العلوي، والسفلي، والكليات، والجزئيات، وما يعلم الخلق، وما لا يعلمون.

التعليق

كيف يعلم الله المستحيلات؟ قال تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢]، هذا تعليق بشيء مستحيل، يعني: مستحيل أن يكون فيها آلهة إلا الله. أخبر الله أنه لو كان في هذا الكون آلهة إلا الله لفسدتا، فأخبر عن شيء لا يمكن وجوده.

❑ ❑ ❑

... وأنه الحكيم، الذي له الحكمة التامة الشاملة لجميع ما قضاه، وقدَّره، وخلقه، وجميع ما شرعه، لا يخرج عن حكمته مخلوق، ولا مشروع.

وأنه العزيز، الذي له جميع معاني العزة على وجه الكمال التام من كل وجه: عزّة القوة، وعزة الامتناع، وعزة القهر والغلبة، وأن جميع الخلق في غاية الذلّ، ونهاية الفقر، ومنتهى الحاجة والضرورة إلى ربِّهم.

وأنه الرحيم، الذي له جميع معاني الرحمة، الذي وسعت رحمته كل شيء، ولم يخل مخلوق من إحسانه طرفة عين، ووصلت رحمته حيث وصل علمه ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ [غافر: ٧]. وأنه القدوس، السلام، المعظَّم، المنزَّه عن كل عيب وآفة ونقص، وعن مماثلة أحد، وعن أن يكون له ندّ من خلقه.

وهكذا بقية الأسماء الحسنى اعتبرها بهذه القاعدة الجليلة ينفتح لك باب عظيم من أبواب معرفة الله، بل أصل معرفة الله تعالى معرفة ما تحتوي عليه أسماؤه الحسنى من المعاني العظيمة، بحسب ما يقدر عليه العبد، وإلا فلا يبلغ علم أحد من الخلق، ولا يحصي أحد ثناء عليه؛ بل هو كما أثنى على نفسه، وفوق ما يثني عليه عباده.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ۚ﴾ [المائدة: ٢]، فالبرّ يشمل جميع أنواع البرّ والخير. وتشمل التقوى: جميع ما يجب اتقاؤه من أنواع المعاصي والمحرَّمات.

والإثم: اسم جامع لكل ما يؤثم ويوقع في المعصية، كما أن

العدوان اسم جامع يدخل فيه التعدي على الناس في الدماء، والأموال، والأعراض.

والمعروف في القرآن: اسم جامع لكل ما عُرف حسنه شرعاً وعقلاً، وعكسه المنكر.

وقد نبَّه النبيّ ﷺ أُمته إلى هذه القاعدة، وأرشدهم إلى اعتبارها في قوله في التشهد في الصلاة في قول المصلِّين: «السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين»، فقال: «فإنكم إذا قلتم ذلك سلَّمتم على كل عبدٍ صالح من أهل السماء والأرض»[1]، وأمثلتها في القرآن كثيرة جداً.

التعليق

خلاصة هذه القاعدة: أن المفرد المحلى بأل يعمّ، سواء دخل على وصف أو دخل على اسم جنس. ثم عاد المؤلف ـ رحمه الله ـ واستطرد في أسماء الله تعالى، وأن «أل» فيها للاستغراق؛ فمثلاً: السميع: لاستغراق كل ما يمكن من سمع، ولهذا ما من مسموع إلا ويسمعه الله عز وجل، البصير: لاستغراق كل ما يمكن من بصر، البرّ: لاستغراق كل ما يمكن من الخير والإحسان، وهكذا.

(١) البخاري في الأذان، باب التشهد في الآخرة. حديث رقم (٨٣١) (٢/ ٣١١)، ومسلم في الصلاة، باب التشهد في الصلاة، حديث رقم (٤٠٢) (١/ ٣٠١) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

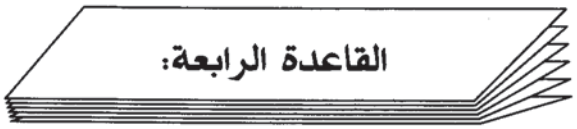

إذا وقعت النكرة في سياق النفي، أو النهي، أو الشرط، أو الاستفهام، دلت على العموم.

كقوله تعالى: ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ [النساء: ٣٦]، **فإنه نهى عن الشرك به في النيات، والأقوال، والأفعال، وعن الشرك الأكبر، والأصغر، والخفيّ، والجلي؛ فلا يجعل العبد لله نداً ومشاركاً في شيء من ذلك.**

ونظيرها: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا﴾ [البقرة: ٢٢].

وقوله في وصف يوم القيامة: ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا﴾ [الانفطار: ١٩]، **يعمّ كل نفس، وأنه لا تملك شيئاً من الأشياء، لا إيصال المنافع، ولا دفع المضارّ.**

وكقوله تعالى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ﴾ [يونس: ١٠٧]، **فكل ضرٍّ قدَّره الله على العبد ليس في استطاعة أحد من الخلق كشفه بوجه من الوجوه، ونهاية ما يقدر عليه المخلوق من الأسباب والأدوية جزء من أجزاء كثيرة داخلة في قضاء الله وقدره.**

وقوله: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ [فاطر: ٢]، ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾

[النحل: ٥٣]، **يشمل كل خير في العبد ويصيب العبد، وكل نعمة فيها حصول محبوب أو دفع مكروه، فإن الله هو المتفرد بذلك.**

وقوله: ﴿هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ [فاطر: ٣].

وإذا دخلت (مِنْ) صارت نصاً في العموم، كهذه الآية: ﴿فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾ [الحاقة: ٤٧]، ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: ٥٩، ٦٥، ٧٣، ٨٥] و[هود: ٥٠، ٦١، ٨٤] و[المؤمنون: ٢٣، ٣٢] **ولها أمثلة كثيرة جداً.**

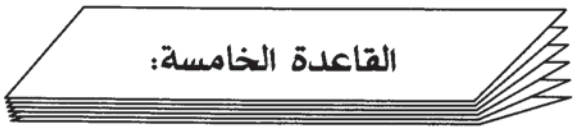

المفرد المضاف يفيد العموم، كما يفيد ذلك اسم الجمع.

فكما أن قوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ﴾ [النساء: ٢٣] **إلى آخرها، يشمل كل أُمّ انتَسَبْتَ إليها وإن علت، وكل بنت انْتَسَبَتْ إليك وإن نزلت، إلى آخر المذكورات...**

التعليق

وفيها أيضاً فائدة ثانية: أن الأُمّ تشمل كل من انتَسَبْتَ إليها، والبنت تشمل كل من انتَسَبَتْ إليك، سواء من قِبل الأب أو الأُم، كذلك خالة الإنسان خالة له ولذريته من بعده إلى يوم القيامة، وعمّة الإنسان عمة له ولذريته إلى يوم القيامة، ولو كان من رضاعة، فعمّتك عمة لك ولأولادك وبناتك وبنات بناتك... إلخ، وكذلك خالتك.

❑ ❑ ❑

...، فكذلك قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى: ١١]، **فإنها تشمل النِّعم الدينية والدنيوية.**

﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢]، **فإنها تعمّ الصلوات كلها، والأنساك كلها، وجميع ما العبد فيه وعليه**

في حياته ومماته، الجميع قد أوقعتَه وأخلصتَه لله وحده لا شريك له.

وقوله: ﴿وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾ [البقرة: ١٢٥]، على أحد القولين: أنه يشمل جميع مقاماته في مشاعر الحجّ، اتخذوه معبداً.

وأصرح من هذا قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا﴾ [النحل: ١٢٣]، وهذا شامل لكل ما هو عليه من التوحيد، والإخلاص لله تعالى، والقيام بحق العبودية.

وأعمّ من ذلك وأشمل قوله تعالى لما ذكر الأنبياء: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: ٩٠]، فأمره الله أن يقتدي بجميع ما عليه المرسلون من الهدى، الذي هو العلوم النافعة، والأخلاق الزاكية، والأعمال الصالحة، والهدى المستقيم. وهذه الآية أحد الأدلة على الأصل المعروف: «أن شرع من قبلنا شرع لنا ما لم يرد شرعنا بخلافه». وشرع الأنبياء السابقين هو هداهم في أصول الدين وفروعه.

وكذلك قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ﴾ [الأنعام: ١٥٣]، وهذا يعمُّ جميع ما شرعه لعباده فعلاً، وتركاً، اعتقاداً، وانقياداً. وأضافهُ إلى نفسه في هذه الآية لكونه الذي نصبه لعباده، كما أضافه إلى الذين أنعم عليهم في قوله: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة: ٧]، لكونهم هم السالكون له؛ فصراط الذين أنعم الله عليهم من النبيّين، والصدِّيقين، والشهداء، والصالحين: ما اتّصفوا به من العلوم، والأخلاق، والأوصاف، والأعمال.

وكذلك قوله: ﴿... وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: ١١٠] يدخل في ذلك جميع العبادات، الظاهرة والباطنة، العبادات الاعتقادية والعملية.

كما أن وصف الله لرسوله ﷺ بالعبودية المضافة إلى الله: ﴿سُبْحَانَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾ [الإسراء: ١]، ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ [البقرة: ٢٣]، ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾ [الفرقان: ١] **يدلّ على أنه وفّى جميع مقامات العبودية؛ حيث نال أشرف المقامات بتوفيته لجميع مقامات العبوديات.**

وقوله: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾ [الزمر: ٣٦]، **فكلّما كان العبد أقوم بحقوق العبودية كانت كفاية الله له أكمل وأتمّ، وما نقص منها نقص من الكفاية بحسبه.**

وقوله: ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ﴾ [القمر: ٥٠]، ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [النحل: ٤٠] **يشمل جميع أوامره القدرية الكونية، وهذا في القرآن شيء كثير.**

التعليق

المفرد المضاف يفيد العموم، والجمع المضاف أيضاً يفيد العموم، أما الجمع فهو يفيد العموم بصيغته وإضافته، والمفرد يفيد العموم بالإضافة فقط، فلو نظرنا إليه لكونه مفرداً ما دلّ على العموم، لكن بالإضافة يدل عليه.

ولهذا قال العلماء: لو قال: امرأتي طالق، طلقت جميع نسائه ما لم يرد واحدة معينة. ولو قال: داري وقف وله ثلاثة دور صارت جميع الدور وقفاً؛ لأن المفرد المضاف يعمّ، ولو قال: غلامي حرّ، عتق جميع غلمانه، ما لم ينوِ.

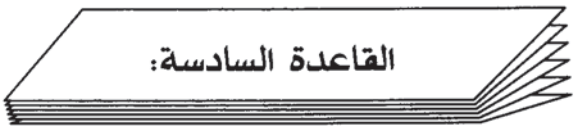

في طريقة القرآن في تقرير التوحيد ونفي ضدّه.

يكاد القرآن أن يكون كله لتقرير التوحيد، ونفي ضدّه، وأكثر الآيات يقرر الله فيها توحيد الإلٰهية وإخلاص العبادة لله وحده لا شريك،...

التعليق

هذا البحث من أهم البحوث؛ لأنه يجب أن يكون الإنسان موحداً في القصد والعمل، في القصد لا يريد بذلك إلا وجه الله، في العمل لا يتبع إلا رسول الله، فلا بدّ من هذين التوحيدين: توحيد القصد وهو الإخلاص، وتوحيد الاتباع أو العمل وهو الاتباع للرسول، فإذا تحقق التوحيدان صحت الأعمال، وإذا اختلّ أحدهما، فإنه يختل من عمله بقدر ما اختل من توحيده.

❑ ❑ ❑

... ويخبر أن جميع الرسل تدعو قومها إلى أن يعبدوا الله ولا يشركوا به شيئاً، وأن الله تعالى إنما خلق الجن والإنس ليعبدوه،...

التعليق

لماذا لم يكن تقرير الأنبياء ودعوتهم إلى توحيد الربوبية؟ لأن أقوامهم كانوا مُقرِّين به لا ينكرونه، ولم ينكر أحد توحيد الربوبية

أبداً إلا مكابرة، ولا هناك أحد يعتقد أن هذا الكون خلق نفسه أبداً، حتى المجوس الوثنية يرون أن للعالم خَالِقَيْن، ومع هذا يرون أن أحد الخَالِقَيْن أكمل من الثاني. نعم يرون أن النور يخلق الخير، والظلمة تخلق الشر، ويقولون: إن النور إلٰه خير نافع، والظلمة إلٰه شرير، ويقول بعضهم أيضاً: إن هذه الظلمة حادثة بعد إذ لم تكن بخلاف النور، وعلى كل حال، ما تجد أحداً من الخلق يقول: إن هذا العالم خُلِق بدون خالق أبداً، إلا مكابر. أما توحيد الأُلوهية، فإنه هو الذي وقع فيه النزاع والجدال بين الرسل وأُممهم مكابرة منهم، ولو رجعت إلى قرارة أنفسهم لكان كما قال الله تعالى: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ﴾ [النمل: ١٤].

❑ ❑ ❑

... وأن الكتب والرسل اتفقت على هذا الأصل الذي هو أصل الأُصول كلها، وأن مَن لم يدن بهذا الدين ـ الذي هو إخلاص العمل لله ـ فعمله باطل ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر: ٦٥]، ﴿... وَلَوْ أَشْرَكُواْ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٨٨]. **ويدعو العباد إلى ما تقرر في فطرهم وعقولهم من أن المتفرِّد بالخلق والتدبير، والمتفرِّد بالنِّعم الظاهرة والباطنة، هو الذي لا يستحق العبادة إلا هو، وأن سائر الخلق ليس عندهم خلق، ولا نفع، ولا دفع، ولن يغنوا عن أحد من الله شيئاً، ويدعوهم أيضاً إلى هذا الأصل بما يتمدح به ويثني على نفسه الكريمة، من تفرُّده بصفات العظمة، والمجد، والجلال، والكمال، وأن من له هذا الكمال المطلق الذي لا يشاركه فيه مشارك أحق من أخلصت له الأعمال الظاهرة والباطنة، ويقرِّر هذا التوحيد بأنه هو الحاكم وحده، فلا يحكم غيره شرعاً ولا جزاء** ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ﴾ [يوسف: ٤٠].

التعليق

هنا ما قال: ولا قدراً؛ لأنه يتكلم عن تقرير الألوهية، وإلا فلا يحكم غيره؛ لا قدراً ولا شرعاً ولا جزاء، ولا يحكم إلا الله عز وجل.

❑ ❑ ❑

وتارة يقرِّر هذا بذكر محاسن التوحيد، وأنه الدين الوحيد الواجب شرعاً، ونقلاً، وفطرة، على جميع العبيد، ويذكر مساوئ الشرك، وقبحه، واختلال عقول أصحابه بعد اختلال أديانهم، وتقليب أفئدتهم، وكونهم في شك وأمر مريج.

وتارة يدعو إليه بذكر ما رتَّب عليه من الجزاء الحسن في الدنيا والآخرة، والحياة الطيبة في الدور الثلاث، وما رتّب على ضدّه من العقوبات العاجلة والآجلة، وكيف كانت عواقبهم أسوأ العواقب وشرها.

وبالجملة، فكلّ خير عاجل وآجل، فإنه من ثمرات التوحيد، وكل شرٍّ عاجل وآجل، فإنه من ثمرات ضدّه، والله أعلم.

التعليق

معنى هذه القاعدة: أن الله تعالى يقرر توحيد الأُلوهية في القرآن إما بكمال صفاته، وإما بتوحيد ربوبيته، ولهذا يستدل الله عز وجل على هؤلاء المنكرين للأُلوهية بالربوبية؛ إذ أنه يلزمهم إذا أقرّوا أن الله وحده هو الربّ الخالق المالك المدبّر لجميع الأمور يلزمهم أن لا يعبدوا إلا إياه وحده لا شريك له؛ ولهذا نقول:

إن العلاقة بين أقسام التوحيد الثلاثة، هي: أن توحيد الربوبية مستلزم لتوحيد الأُلوهية، وتوحيد الأُلوهية متضمن لتوحيد الربوبية، وتوحيد الأسماء والصفات من تمام توحيد الربوبية؛ لأنه يتضمن كمال صفات الخالق سبحانه وتعالى.

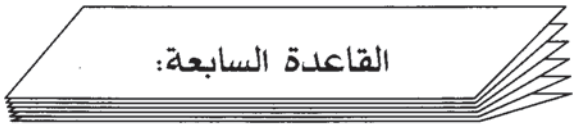

في طريقة القرآن في تقرير نبوة محمد ﷺ.

هذا الأصل الكبير قرَّره الله في كتابه بالطرق المتنوعة التي يعرف بها كمال صدقه ﷺ، فأخبر أنه صدَّق المرسلين، ودعا إلى ما دعوا إليه، وأن جميع المحاسن التي في الأنبياء، فهي في محمد ﷺ، وما نُزِّهوا عنه من النواقص والعيوب، فمحمّد أوْلاهم وأحقهم بهذا التنزيه، وأن شريعته مهيمنة على جميع الشرائع، وكتابه مهيمن على كل الكتب، فجميع محاسن الأديان والكتب قد جمعها هذا الكتاب وهذا الدين، وفاق عليها بمحاسن وأوصاف لم توجد في غيره، وقرَّر نبوته بأنه أُمِّي لا يكتب ولا يقرأ، ولا جالس أحداً من أهل العلم بالكتب السابقة؛ بل لم يُفاجَأ الناس حتى جاءهم بهذا الكتاب، الذي لو اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثله ما أتوا، ولا قدروا، ولا هو في استطاعتهم، ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً، وأنه محال مع هذا أن يكون من تلقاء نفسه، أو متقوِّل، أو متوهِّم فيما جاء به. وأعاد في القرآن وأبدى في هذا النوع، وقرَّر ذلك بأنه يخبر بقصص الأنبياء السابقين مطوَّلة على الوجه الواقع، الذي لا يستريب فيه أحد. ثم يخبر تعالى أنه ليس له طريق ولا وصول إلى هذا إلا بما أتاه الله من الوحي، كمثل قوله تعالى لما ذكر قصة موسى مطوَّلة: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ [القصص: ٤٦]، ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ﴾ [القصص: ٤٤]، وكما في

قوله: ﴿... وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ [آل عمران: ٤٤]. ولما ذكر قصة يوسف وإخوته مطولة، قال: ﴿... وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾ [يوسف: ١٠٢].

فهذه الأمور والإخبارات المفصَّلة التي يفصِّلها تفصيلاً لم يتمكن أهل الكتاب الذين في وقته ولا مَن بعدهم على تكذيبه فيها ولا معارضته من أكبر الأدلة على أنه رسول الله حقاً.

وتارة يقرِّر نبوته بكمال حكمة الله وتمام قدرته، وأن تأييده لرسوله، ونصره على أعدائه، وتمكينه في الأرض موافق غاية الموافقة لحكمة الله، وأن من قدح في رسالته فقد قدح في حكمة الله، وفي قدرته.

وكذلك نصره وتأييده الباهر على الأُمم الذين هم أقوى أهل الأرض من آيات رسالته، وأدلة توحيده، كما هو ظاهر للمتأمِّلين.

وتارة يقرّر نبوته ورسالته بما حازه من أوصاف الكمال، وما هو عليه من الأخلاق الجميلة، وأن كل خُلُق عالٍ سامٍ، فلرسول الله ﷺ منه أعلاه وأكمله، فمن عظمت صفاته وفاقت نعوتهُ جميع الخلق التي أعلاها الصدق، أليس هذا أكبر الأدلة على أنه رسول ربّ العالمين، والمصطفى المختار من الخلق أجمعين؟!

وتارة يقرّرها بما هو موجود في كتب الأولين، وبشارات الأنبياء والمرسلين، إما باسمه العلَم، أو بأوصافه الجليلة، وأوصاف أُمّته، وأوصاف دينه.

وتارة يقرِّر رسالته بما أخبر به من الغيوب الماضية، والغيوب

المستقبلة، التي وقعت في زمانه، والتي لا تزال تقع في كل وقت؛ فلولا الوحي ما وصل إليه شيء من هذا، ولا له ولا لغيره طريق إلى العلم به.

وتارة يقرِّرها بحفظه إياه، وعصمته له من الخلق، مع تكالب الأعداء وضغطهم، وجدّهم التام في الإيقاع به بكل ما في وسعهم، والله يعصمه، ويمنعه، وينصره!! وما ذاك إلا لأنه رسوله حقاً، وأمينه على وحيه.

وتارة يقرِّر رسالته بذكر عظمة ما جاء به، وهو القرآن الذي ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢]، وتحدَّى أعداءه ومن كفر به أن يأتوا بمثله، أو بعشر سور مثله، أو بسورة واحدة؛ فعجزوا، ونكصوا، وباؤوا بالخيبة والفشل!! وهذا القرآن أكبر أدلة رسالته، وأجلّها، وأعمّها.

وتارة يقرِّر رسالته بما أظهر على يديه من المعجزات، وما أجرى له من الخوارق والكرامات الدالّة ـ كل واحد بمفرده منها ـ فكيف إذا اجتمعت؟! على أنه رسول الله الصادق المصدوق، الذي لا ينطق عن الهوى، إنْ هو إلا وحي يوحى.

وتارة يقرِّرها بعظيم شفقته على الخلق، وحنوِّه الكامل على أُمته، وأنه بالمؤمنين رؤوف رحيم، وأنه لم يوجد، ولن يوجد، أحد من الخلق أعظم شفقة، وبراً، وإحساناً، إلى الخلق منه، وآثار ذلك ظاهرة للناظرين.

فهذه الأمور والطرق قد أكثر الله من ذكرها في كتابه، وقرَّرها بعبارات متنوعة ومعاني مفصَّلة، وأساليب عجيبة، وأمثلتها تفوق العدّ والإحصاء، والله أعلم.

طريقة القرآن في تقرير المعاد.

وهذا الأصل الثالث من الأصول التي اتفقت عليها الرسل والشرائع كلها: التوحيد، والرسالة، وأمر المعاد، وحشر العباد.

وهذا قد أكثر الله من ذكره في كتابه، وقرَّره بطرق متنوعة:

منها: إخباره، وهو أصدق القائلين، ومع إكثار الله من ذكره، فقد أقسم عليه في ثلاثة مواضع من كتابه.

ومنها: الإخبار بكمال قدرة الله تعالى، ونفوذ مشيئته، وأنه لا يعجزه شيء؛ فإعادة العباد بعد موتهم فرد من أفراد آثار قدرته.

ومنها: تذكيره العباد بالنشأة الأولى،...

التعليق

المؤلف ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: إنه أقسم عليه في ثلاثة مواضع من كتابه، والصحيح أنه أمر نبيّه أن يقسم عليه؛ لأن الإقسام عليه كثير، أكثر من ثلاثة مواضع، لكنه أمر نبيّه أن يقسم في ثلاثة مواضع:

في سورة يونس: ﴿وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ ۖ قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ ۖ﴾ [يونس: ٥٣]، وفي سبأ: ﴿قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾ [سبأ: ٣]، وفي التغابن: ﴿قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ﴾ [التغابن: ٧].

❑ ❑ ❑

... وأن الذي أوجدهم ولم يكونوا شيئاً مذكوراً لا بدّ أن يعيدهم كما بدأهم. وأعاد هذا المعنى في مواضع كثيرة، بأساليب متنوعة.

ومنها: إحياؤه الأرض الهامدة الميتة بعد موتها، وأن الذي أحياها سيُحيي الموتى. وقرّر ذلك بقدرته على ما هو أكبر من ذلك، وهو خلق السماوات والأرض، والمخلوقات العظيمة، فمتى أثبت المنكرون لذلك ـ ولن يقدروا على إنكاره ـ فلأي شيء يستبعدون إحياءه الموتى؟

وقرَّر ذلك بسعة علمه، وكمال حكمته، وأنه لا يليق به ولا يحسن أن يترك خلقه سُدى مُهْمَلين، لا يُؤمرون، ولا يُنهون، ولا يُثابون، ولا يعاقبون!! وهذا طريق قرَّر به النبوة وأمر المعاد.

ومما قرَّر به البعث، ومجازاة المحسنين بإحسانهم، والمسيئين بإساءتهم: ما أخبر به من أيامه في الأُمم الماضين، والقرون الغابرة، وكيف نجّى الانبياء وأتباعهم، وأهلك المكذبين لهم، المنكرين للبعث، ونوَّع عليهم العقوبات، وأحلّ بهم المثُلات، فهذا جزاء معجَّل، ونموذج من جزاء الآخرة أراه الله عباده؛ ليهلك من هلك عن بينة، ويحيا من حي عن بينة.

ومن ذلك ما أرى الله عباده من إحيائه الأموات في الدنيا، كما ذكره الله عن صاحب البقرة، والألوف من بني إسرائيل، والذي مرَّ على قرية وهي خاوية على عروشها، وقصة إبراهيم الخليل والطيور، وإحياء عيسى ابن مريم للأموات، وغيرهما مما أراه الله عباده في هذه الدار؛ ليعلموا أنه قوي ذو اقتدار، وأن العباد لا بدّ أن يَرِدوا دار

القرار، إما الجنة أو النار. وهذه المعاني أبداها الله وأعادها في مَحالّ كثيرة، والله أعلم.

التعليق

وإنما أبدى الله سبحانه وتعالى وأعاد لسببين:

السبب الأول: قوة المنازع والمكابر والمعاند والمنكر، وكلما قوي الإنكار وكثر المعاند، فإنه لا بد أن يكرر الأمر ردعاً له وإثباتاً للحق.

والثاني: لأهمية الإيمان باليوم الآخر؛ لأن مَنْ لم يؤمن باليوم الآخر لن يعمل، فإن الإنسان إذا كان يقول: ما ثَمَّ بعث ولا جزاء ولا حساب، فهو لن يعمل. ما دام يقول: أنا إن فعلت الخطيئة، أو فعلت حسنة، فهو عليّ سواء، فلن يعمل. فلهذا كان الله عز وجل يُكثر من ذكر البعث بعد الموت، وضرب الأمثال له، والإقسام على ثبوته، وغير ذلك مما أشار إليه الشيخ ـ رحمه الله ـ لهذا السبب.

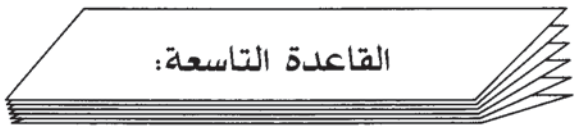

في طريقة القرآن في أمر المؤمنين وخطابهم بالأحكام الشرعية.

قد أمر الله تعالى بالدعاء إلى سبيله بالتي هي أحسن، أي: بأقرب طريق موصل للمقصود، محصل للمطلوب. ولا شكّ أن الطرق التي سلكها الله في خطاب عباده المؤمنين بالأحكام الشرعية هي أحسنها وأقربها، فأكثر ما يدعوهم إلى الخير وينهاهم عن الشرّ بالوصف الذي مَنَّ عليهم به، وهو الإيمان؛ فيقول: يا أيها الذين آمنوا افعلوا كذا، واتركوا كذا؛ لأنّ في ذلك دعوة لهم من وجهين:

أحدهما: من جهة الحثّ على القيام بلوازم الإيمان، وشروطه، ومكملاته؛ فكأنه يقول: يا أيها الذين آمنوا قوموا بما يقتضيه إيمانكم، من امتثال الأوامر، واجتناب النواهي، والتخلق بكل خُلق حميد، والتجنّب لكل خُلق رذيل، فإن الإيمان الحقيقي هكذا يقتضي؛ ولهذا أجمع السلف أن الإيمان يزيد وينقص، وأن جميع شرائع الدين الظاهرة والباطنة من الإيمان ولوازمه، كما دلّت على هذا الأصل الأدلة الكثيرة من الكتاب والسنة، وهذا أحدها؛ حيث يصدر الله أمر المؤمنين بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾، أو يعلق فعل ذلك على الإيمان، وأنه لا يتمّ الإيمان إلا بذلك المذكور.

والوجه الثاني: أنه يدعوهم بقوله: «يا أيها الذين آمنوا افعلوا

كذا، أو اتركوا كذا». أو يعلق ذلك بالإيمان، يدعوهم بمنَّته عليهم بهذه المنّة التي هي أجلّ المِنن، أي: يا مَنْ منَّ الله عليهم بالإيمان قوموا بشكر هذه النعمة بفعل كذا وترك كذا.

التعليق

يقول ـ رحمه الله ـ: أحدهما: من جهة الحثّ على القيام بلوازم الإيمان وشروطه، والثاني: أن يدعوهم بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ افعلوا كذا واتركوا كذا، أو يعلق ذلك بالإيمان، يدعوهم بمنّته عليهم بهذه المنّة التي هي أجلّ المنن، ومناداتهم بـ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾؛ لأجل إغرائهم وحثّهم على أن يفعلوا وأن ذلك من مقتضى الإيمان. الثاني: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ إشعار لهم بمنّة الله عليهم بالإيمان، يعني: هذه النعمة التي أنعمت بها عليكم، وهي الإيمان الذي ناديتكم به.

❑ ❑ ❑

فالوجه الأول: دعوة لهم أن يتمِّموا إيمانهم ويكملوه بالشرائع الظاهرة والباطنة.

والوجه الثاني: دعوة لهم إلى شكر نعمة الإيمان ببيان تفصيل هذا الشكر، وهو الانقياد التامّ لأمره ونهيه.

وتارة يدعو المؤمنين إلى الخير، وينهاهم عن الشر، بذكر آثار الخير، وعواقبه الحميدة، العاجلة والآجلة، وبذكر آثار الشر، وعواقبه الوخيمة، في الدنيا والآخرة.

وتارة يدعوهم إلى ذلك بذكر نعمه المتنوعة، وآلائه الجزيلة،

وأن النعم تقتضي منهم القيام بشكرها، وشكرها هو القيام بحقوق الإيمان.

وتارة يدعوهم إلى ذلك بالترغيب والترهيب، وبذكر ما أعدَّ الله للمؤمنين الطائعين من الثواب، وما لغيرهم من العقاب.

وتارة يدعوهم إلى ذلك بذكر ما له من الأسماء الحسنى، وما له من الحقّ العظيم على عباده، وأن حقّه عليهم أن يقوموا بعبوديته ظاهراً وباطناً، ويتعبّدوا له ويدعوه بأسمائه الحسنى، وصفاته المقدّسة؛ فالعبادات كلها تعظيم وتكبير لله، وإجلال وإكرام، وتودُّد إليه، وتقرُّب منه.

وتارة يدعوهم إلى ذلك لأجل أن يتَّخذوه وحده وليّاً، وملجأً، وملاذاً، ومعاذاً، ومفزعاً إليه في الأمور كلها، وإنابة إليه في كل حال، ويخبرهم أن هذا هو أصل سعادة العبد وصلاحه وفلاحه، وأنه إن لم يدخل في ولاية الله وتولّيه الخاص تولاه عدوه الذي يريد له الشر والشقاء، ويمنّيه ويغرّه حتى يُفوِّته المنافع والمصالح، ويوقعه في المهالك، وهذا كله مبسوط في القرآن بعبارات متنوعة.

وتارة يحثُّهم على ذلك، ويحذّرهم من التشبه بأهل الغفلة، والإعراض، والأديان المبدلة؛ لئلا يلحقهم من اللوم ما لحق أولئك الأقوام؛ كقوله: ﴿فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [يونس: ٩٥]، ﴿فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنعام: ٥٢]، ﴿وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾ [الأعراف: ٢٠٥]، ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ [الحديد: ١٦] إلى غير ذلك من الآيات.

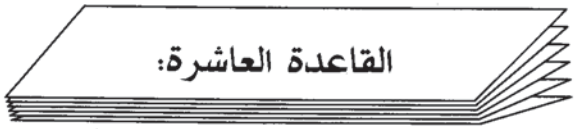

في الطرق التي في القرآن لدعوة الكفار على اختلاف مللهم ونِحلهم.

يدعوهم إلى الدين الإسلامي والإيمان بمحمد ﷺ بما يصفه من محاسن شرعه ودينه، وما يذكره من براهين رسالة محمد ﷺ؛ ليهتدي من قصده الحق والإنصاف، وتقوم الحجة على المعاند. وهذه أعظم طريق يُدعى بها جميع المخالفين لدين الإسلام، فإن محاسن دين الإسلام، ومحاسن النبيّ ﷺ، وآياته، وبراهينه، فيها كفاية تامة للدعوة، بقطع النظر عن إبطال شبههم وما يحتجُّون به، فإن الحق إذا اتضح عُلم أن ما خالفه، فهو باطل ضلال.

ويدعوهم بما يخوِّفهم من أَخَذات الأُمم، وعقوبات الدنيا، وعقوبات الآخرة، وبما في الأديان الباطلة من أنواع الشرور، والعواقب الخبيثة، ويحذّرهم من طاعة رؤساء الشر، ودعاة النار، وأنهم لا بد أن تتقطع نفوسهم على طاعتهم حسرات، وأنهم يتمنون أن لو أطاعوا الرسول ولم يطيعوا السادة والرؤساء، وأن مودتهم وصداقتهم ستتبدَّل بغضاء وعداوة.

ويدعوهم أيضاً بنحو ما يدعو المؤمنين بذكر آلائه ونعمه، وأن المنفرد بالخلق والتدبير والنعم الظاهرة والباطنة هو الذي يجب على العباد طاعته، وامتثال أمره، واجتناب نهيه.

ويدعوهم أيضاً بشرح ما في أديانهم الباطلة، وما احتوت عليه من القبح، والمقارنة بينها وبين دين الإسلام؛ ليتبين ويتضح ما يجب إيثاره وما يتعيَّن اختياره.

ويدعوهم بالتي هي أحسن، فإذا وصلت بهم الحال إلى العناد والمكابرة الظاهرة توعَّدهم بالعقوبات الصوارم، وبيَّن للناس طريقتهم التي كانوا عليها، وأنهم لم يخالفوا الدين جهلاً وضلالاً، أو لقيام شبهة أوجبت لهم التوقف، وإنما ذلك جحود ومكابرة وعناد، ويبين مع ذلك الأسباب التي منعتهم من متابعة الهدى، وأنها رياسات وأغراض نفسية، وأنهم لما آثروا الباطل على الحق طبع على قلوبهم، وخُتِم عليها، وسدّ عليهم طرق الهدى عقوبة لهم على إعراضهم، وتولِّيهم للشيطان، وتخلِّيهم من ولاية الرحمٰن، وأنه ولاهم ما تولوا لأنفسهم، وهذه المعاني الجزيلة مبسوطة في القرآن في مواضع كثيرة، فتأمَّل وتدبّر القرآن تجدها واضحة جلية، والله أعلم.